* الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ يدافع عن أهل الحديث ويرد على الشيخ محمد العزالي:

الشيخ محمد الغزالي رمز كبير من رموز الدعوة بمصر، وله قلم سيّال في الرد على العلمانيين والمستشرقين وهو فارس لا يُشق له غبار في هذا الميدان. وهو وإن كان حبيبًا إلى النفوس إلا أن الحق أحب إلينا منه، وقد كبا به جواده حينما يتكلم عن أهل الحديث، أو يطعن ويرد بعض الأحاديث التي وجدت في «الصحيحين» فانبرى للرد عليه عالم من البيت المبارك بيت الشيخ محمد بن عبدالوهاب شيخ الإسلام، وهو فضيلة الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ فجزاه اللَّه عن المسلمين خير الجزاء فيقول في رده على كتاب الشيخ محمد الغزالي «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»:

«وهذا الكتاب الذي طلبت الكشف عنه طار به أهل الفتن وأعداء السنن، لجريانه مع أهل الأهواء في أهوائهم، وقد ضرّم ناره، وأشعل الفتيل في زناده «خضراء الدِّمَن»[1] ، وما أدراك ما خضراء الدمن، وسوء منبتها، فنشرت منه وانتقت، فدخلت فتنته إلى بيوت لم تعرف الكتاب ولا كاتبه؛ لأنه يخدم مصالح معلومة في بث الخلاف، وتفريق العلماء، وانتقاد الدعاة، وتطوير قلوب أبطأ تطويرها.

لكن هذا حريق ضُرِّمت ناره، وحريق الأقلام قد يُطفئه سيل المداد من ذوي السداد.

ألم تر - أيها الفاضل المودود - كم أقرّ الكاتب عين الرافضة والعلمانيين حين اجترأ على الفاروق المحدث رضي الله عنه فخطّأه فيما رواه إذ خالف ما يراه ويهواه، فقال ص(١٧): «إن الخطأ غير مُستبعد على راو، ولو كان

(١) يعني بها «جريدة الشرق الأوسط».

في جلالة عمر»!.

ثم ألم تر كيف عطف وكرّ على خبّاب بن الأرت الذي أسلم سادس ستة، وروّحت روحه في جنة الخلد قبل مجئ الغزالي بثلاثة عشر قرنًا[1]، فطعن في علمه إذ ساق ما رواه البخاري ومسلم عن خباب: «إن المسلم يُؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب»، فقال الغزالي ص(٨٧) متطاولاً: «كلام خباب ﷺ عليه مسحة تشاؤم غلبت عليه لمرضه الذي اكتوى منه».

❑ ثم ألم تر ـ أيها الأخ ـ قوله عن سلمان الفارسي ﷺ ص(١١٦) إثر سياق حديث له، قال: «حديث سلمان ليس إلا تعبيراً عن حالة نفسية خاصة» انتهى.

❑ فقل لي أيها الموفق، أفيعز على ذي هوى أن يردّ الحجج والدلائل بمثل ما ردّ به الغزالي: عمر مخطئ فيما رواه عن رسول اللَّه ﷺ، وخبّاب متشائم، وسلمانُ ذو حالة نفسية خاصة.

❑ ثم قف ـ أيها الودود ـ على قوله ص(١٢٨): «إن من قال بقطع الصلاة بالثلاثة المذكورين في حديث أبي ذر وغيره هم القاصرون من أهل الحديث».

أتدري من الذين قالوا بقطع الصلاة بالثلاثة المذكورة؟ إنهم جمع خِيرة؛ منهم: أنس، وأبو ذر، وأبو هريرة ﷺ، وابن عباس في رواية، والحسن البصري، وأبو الأحوص، وأحمد في رواية وغيرهم.

ثم سل أطفال المسلمين عمن ذكرت لك أسماءهم من الأئمة الأعلام: أقاصرون هم؟ فإن أجابوك بأنهم كَمَلة مُنتخبون فستقاسمني القول بأن الغزالي

(١) لا نشهد لمعيّن أنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بما شهد له الشارع.

عَظُم رَغَبُه في إطاحة من يُخالفه، بألفاظ نابيات، وتحريرات واهيات، شأن أهل الهوى، ومن قال ما شاء لقِي ما لم يشأ.

* أيها الصاحب:

قرأت وقرأت الكتاب، فألفيته غنيًا فقيراً: غنيًّا من القصص والسخريات، فقيراً من عالي الكلام والاختيارات، نصب الكاتب فيه نفسه قاضيًا وحكمًا، وبيْن من؟ بين أهل الفقه وأهل الحديث في فهمهم للسنّة، فدلَّ بذلك على ضيق أفقه، وضعف فقهه، إذ أهل الفقه المتقدمون جلّهم محدثون، وأهل الحديث السالفون جلّهم فقهاء.

واعتبر ذلك بمالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، والليث والثوري، ونحوهم.. أليسوا أمراء المؤمنين في الحديث؟ ثم أليسوا فقهاء الأمة؟»[1].

❑ وردّ على الغزالي قوله ص(١٩):

«أهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل، وهذه سوأة فكرية وخُلُقية، رفضها الفقهاء المحققون»!

❑ قال الشيخ صالح: «وهذا تعالم، بل كذب، فمن أولئك الفقهاء المحققون الذين رفضوا هذا؟ لم يصح خلاف لأحد؛ إلا أن يعني الغزالي نفسه! وهو الأظهر فالأمة مجمعة على هذا في النفس، وليس هذا من قول أهل الحديث وحدهم، قال: الشافعي في «الأم»:

«لم أعلم مخالفًا من أهل العلم قديمًا ولا حديثًا في أن دية المرأة نصف دية الرجل».

---

(١) المعيار لعلم الغزالي في كتابه «السنة النبوية» للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ص(٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣).

ونقل الإجماع وأثبته: ابن المنذر، وابن حزم، وابن عبدالبر، وابن رشد والقرطبي، وجمع، والعلماء تواتر عندهم نقل هذا الإجماع.

فإذا انكشف لك هذا فاعلم ـ علمت الخير ـ أن قوله: «هذه سوأة فكرية وخلُقية» اتهام لأمة الإسلام، ولشريعة الإسلام، وشهادة على الصحابة والتابعين والعلماء بعدهم أجمعين بأن إجماعهم وفقههم سوأة في الفكر، بل وفي الخُلُق، فالفكر فكر سوء، والخُلُق مذموم هابط!

هذا مكان هذه الأمة ـ وإجماع علمائها ـ في قلب هذا الرجل.

وتذكر هنا قوله ص(١٦٠) آخر كتابه، وكأنما يشهد على نفسه: «إن الذين يخطئون في الفهم، ويجورون علي في حكم لا ينبغي أن يُسقطوا عوجهم الفكري على دين اللَّه» انتهى»[١].

❑ وعن قول الشيخ الغزالي في المعازف والموسيقى[٢] ص(٦٣): «التطرف في التحريم نزعة غير إسلامية».

❑ قال الشيخ صالح: «لا يبعد عن خاطرك أن الأئمة الأربعة وفقهاء الملّة أفتوا بتحريم المعازف، ولم يُخالف إلا الظاهرية، وبعض أفراد شذّوا ممن قبلهم، ولهذا فإن تهويله وتقريره لما يريد بعنوان مثل هذا، يُفهم أنه متهم للأئمة بأنهم حرّموا حلالاً، نازعين إلى غير الإسلام، فلم يتّبعوا الإسلام، وإنما نزعوا إلى غيره من تقاليد وأديان.

وكلامه في المعازف والغناء كلام من ركب الثقافة، فسعى إلى تقرير ما يريد، بعيداً عن القواعد العلمية، والبينات الشرعية»[٣].

---

(١) «المعيار» ص(٤٦ ـ ٤٧).

(٢) قال الشيخ في غير هذا الموضع «من لم يستمع الغناء فهو جلف الطباع»!.

(٣) «المعيار» ص(٥٨، ٥٩).

❑ وعن تنقّص الغزالي وسخريته من علماء الأمة قال الشيخ صالح: «هذه ـ أيها الأخ ـ خلّة من تمكنتْ منه أصابته المقاتل، ولحوم العلماء مسمومة، وتنقّص العلماء من شيم السفهاء، وكِلام الكَلام كجراح السهام، أفلم تشعر بطعن ينفذ إلى حشاك كلما تنقّص الغزالي إمامًا أو عالمًا؟».

قد سمعت مقاله قبل في عمر وخباب وسلمان والقاصرين ـ عنده ـ من أهل الحديث ـ فاسمع تنقصه من نافع أول سلسلة الذهب عن ابن عمر:

قال ص(١٠٣) بعد سياق حديث وأثر: «ونافع ـ غفر اللَّه له ـ مخطئ.. ورواية نافع هذه ليست أول خطأ يتورّط فيه، بل قد حدّث بأسوأ من ذلك»، ثم وصفه ص(١٠٥) بأنه: «راو تائه». فاسمع هذا، ثم تذكّر قول الإمام مالك: «كنت إذا سمعتُ نافعًا يُحدّث عن ابن عمر لا أبالي أن لا أسمعه من غيره».

لكن لا يعزُبُ عن لب مثلك ـ أيها الأخ ـ أن ذنب نافع هو روايته ما يخالفِ تفقّه الغزالي، وذلك ذنب يهوي بصاحبه!

وعِش تر، وتذكّر قول ساكن المعرّة:

وقال السُّها للشمس أنت خفيّة ... وقال الدجى للصبح لونُكَ حائِلُ

وطاولت الأرضُ السماء سفاهة ... وفاخرتِ الشُّهبَ الحصى والجنادلُ

ولعلّك ـ أيها الصاحب الموفق ـ اطلعت على نفيه صفة للَّه تعالى يثبتها أهل السنة[1]، وردّه حديث البخاري ـ رحمه اللَّه ـ، ثم قوله ص(١٢٧): «بعض المرضى بالتجسيم هو الذي يُشيع هذه المرويات، إن المسلم الحق ليستحي أن ينسب إلى رسوله هذه الأخبار» انتهى.

فالبخاري ومن حذا حذوه فيهم خصلتان: مرضى بالتجسيم، وليسوا

---

(١) يعني الشيخ بها صفة الساق الواردة في قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾.

من المسلمين حقًّا!

ولا يقول ذلك إلا أشعري مجازف.

❑ ولا تعجب ـ إذن ـ من قوله ص(١١٤) عن الحافظ المنذري: «إنه ليس لديه فقه صحيح».

ولا تعجب ـ إذن ـ من قوله عن كلام لابن خزيمة، وغيره من المتقدمين، والمازري، والقاضي عياض، لما وجّهوا حديث فقء موسى عين ملك الموت توجيها صحيحًا عليه المعتمد والترجيح، قال ص(٢٩) عن مقالهم السديد: «نقول نحن (!!) هذا الدفاع كله خفيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يُساغ» انتهى.

❑ هذه حُجج السُّوقة والهمل: دفع بالألفاظ المبتذلة الشوهاء في أوجه العلماء الفقهاء.

واسمعه حين قال ص(١١٨): «من زعم أن السنة تنسخ القرآن فهو مغرور» انتهى.

وهؤلاء الذين قالوا بالنسخ جمع من العلماء منهم: حسان بن عطية، وأحمد في رواية، وابن حزم، وجمع من الظاهرية؛ قالوا بوقوع النسخ مطلقًا، وذهب آخرون إلى وقوعه في زمن النبي ﷺ؛ منهم: القاضي في «التقريب»، والغزالي، والباجي، والقرطبي.. وغيرهم.

أفأولئك مغرورون؟

ومن استهزأ وسخر من العلماء السابقين فلا تستكثر منه مقالاً، أو تستغرب منه فعالاً، لأن لحومهم ـ كما أسلفت مسمومة»[1].

❑ يقول الشيخ صالح آل الشيخ في نقده للغزالي: «وقد بلغ هذا الرادُّ

(١) «المعيار» ص(١٥ ـ ١٩) مختصراً.

للسنن أطوريه حين اتهم الأمة وعلماءها تهمة ما تجاسر عليها مستشرق أو حاقد، فقال قالة سوء ص(٤٦) فأصغ لها، قال: «إنني أشعر أن أحكامًا قرآنية ثابتة أُهملت كل الإهمال، لأنها تتصل بمصلحة المرأة»!.

واسمع قوله ص(٣٣) عمن ذهب إلى إجبار البكر على الزواج بمن رضيه لها والدها، قال: «ولا نرى (!!) وجهة النظر هذه إلا انسياقًا مع تقاليد إهانة المرأة وتحقير شخصيتها» انتهى.

فالذين قرروا ترجيح جواز إجبار البكر لأدلة أقاموها.. وإن كان ترجيحهم مرجوحًا ـ تركوا القرآن والنص عند الغزالي، واتبعوا تقاليد تهين المرأة، وتحقّر شخصيتها.

لكنْ؛ أتدري من أولئك؟! هم القاسم، وسالم ـ وهما من فقهاء المدينة النبوية السبعة ـ وعامر الشعبي، وابن أبي ليلى، والليث ومالك، والشافعي، وأحمد في رواية وإسحاق.

هؤلاء الأئمة متهمون بترك القرآن والحُكم به رعاية لتقاليد أهانت المرأة! نعوذ باللَّه من الحور بعد الكور»[1].

❑ ويقول الشيخ صالح: «ومن ضعف الكاتب في الحديث قوله ص(٥٥): «ولم يجئ في أحد «الصحيحين» ما يُفيد منع النساء من الصلاة في المساجد» انتهى. وقد جاء في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لو أن رسول اللَّه ﷺ رأى من النساء ما رأينا لمنعهن من المسجد»[2].

❑ ويقول الشيخ صالح: «ومن ضعفه في الأصول قوله ص(٦٥): «الحديث الصحيح له وزنه، والعمل به في فروع الشريعة له مساغ وقبول» انتهى.

(١) المصدر السابق ص(٢٠ ـ ٢١).

(٢) المصدر السابق ص(٢٨).

وهنا مخالفتان بدعيتان:

الأولى: قوله: «العمل به في فروع الشريعة». تنحية لما صحّ من السنن والأحاديث عن الاحتجاج بها في العقائد وأصول الدين، وتلكم نزعة اعتزالية اشتهرت في قالَبَيْ الأشعرية والماتريدية، ونحوهما من زيْغ الخلف عن محجة السلف.

الثانية: قوله: «العمل به.. له مساغ وقبول» مخالف لإجماع الأمة من الفقهاء ومحدثين، وأصوليين، على أن الحديث إذا صح وجب العمل به في الفقهيات.

وكلمات الأئمة في هذا ذائعة سائرة، وقد يترك أحدهم العمل به للنظر في دلالته بما يسوغ النظر فيه مما عرف في الأصول..

أما قوله: «له مساغ وقبول»، فباطل وردّ، والمستقيم أن يقول: «واجب وحتم، إن لم تكن دلالته محتملة»[1].

* رده على الغزالي في طعنه على السلفية:

قال الشيخ صالح: «ومن تناقضه قوله ص(١١) عن كتابه «العلّ فيه درسًا لشيوخ يحاربون الفقه المذهبي لحساب سلفية مزعومة» انتهى.

ولمزه للدعوة السلفية لا يضيرها، إذ الدعوة دعت إلى التوحيد الحق، وأخذت دين اللَّه كله، بشمولية واتزان، واعتبر بذلك بدعوة إمام الدعوة في هذه القرون شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، ومن نهج نهجه، واقتفى سننه، في الدعوة إلى تعظيم اللَّه وتوحيده، والإلزام بشرع اللَّه.. رحم اللَّه أئمتنا رحمة واسعة. ومن شذّ من أتباعها، فغلا أو جفا، أو أخطأ وكبا،

---

(١) «المعيار» ص(٤١ ـ ٤٢).

فعلى نفسها جنت براقش، خطؤه على نفسه، لا تتحمّل ما أخطأ فيه دعوتنا»[١] .

* تفسيره أحاديث بخلاف فهم أهل السنة:

❑ قال الشيخ صالح: «وتارة يُفسِّر أحاديث بتفسير أجمع أهل السنة على خلافه خذ مثلاً قوله ص(١٤): «أمتنا تعد الكذب على صاحب الرسالة طريق الخلود في النار؛ لأنه تزوير للدين، وافتراء على اللَّه لقوله ﷺ: **«إن كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار»** انتهى.

وتلكم التي تحكم بالخلود على الكاذب على رسول اللَّه ﷺ هي الأمة الخارجية، لا أمة السُّنّية، ففسّر الحديث بتفسير الخوارج والمعتزلة، مِن جعله الوعيد خلوداً، والكبيرة كفراً»[٢] .

* ضعّفه النفسي أمام الغرب وحال العصر:

❑ قال الشيخ صالح آل الشيخ: «وهذا الضعف قصم ظهوراً، فردّها على أدبارها حائرة ثكلى، ومن قوى يقينه باللَّه وشرعه، لم يرفع بحال الغربِ رأسًا، ولم يبالهم باله، إذْ برد الإيمان وبشاشته جالبة للعزة والاعتزاز بشرعنا وأحكامه، مهما شوّش المرجفون، وحاك الشبه المتحيرون، والكاتب كثيراً ما يستحضر شبه المستشرقين، وإخوانهم الذين نافقوا، فيكون ردّ الشبهة عنده بأي طريقٍ، حتى ولو كانت عسفاء أو هوجاء اسمع إلى قوله لما وقف موقفه المنكور من الاختلاط والسفور، مبديًا باعث الموقف الخفي، قال

---

(١) «المعيار» ص(٦٦ ـ ٦٧).

(٢) «المعيار» ص(٣٤ ـ ٣٥).

ص(٤٦): «قد استغلّ الاستعمار العالمي في غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج المنكور! وشنّ على تعاليم الإسلام حربًا ضارية، كأن الإسلام المظلوم هو المسئول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه».

فهذه كلمات خِلَلَها حالة نفسية تصوغ المواقف وتُبْدي المرجوح راجحًا، والضعيف قويًّا.

ومن ذلك قوله ص(٥٢) عن الأوربيين ومن شابههم: «إذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمة، أو قاضية، أو وزيرة، أو سفيرة فلهم ما شاءوا، ولدينا وجهات نظر فقهية تجيز ذلك كله» انتهى.

وهذا غوص في بحار العقلانية، وتجرّد عن التحقيقات الشرعية، والمسألة دين، وغدًا سؤال.

ومن ذلك قوله ص(٩٥): «عندما تناقلت الصحف (!) أن الشيخ عبدالعزيز بن باز أخرج شيطانًا بوذيًّا من أحد الأعراب، وأن هذا الشيطان أسلم.. كنت أرقب وجوه القرّاء، وأشعر في نفوسهم بمدى المسافة بين العلم والدين» انتهى.

ويعني بالعلم علم الغربيين الفجرة، وبالدين دين الشيخ وأمثاله».

❑ وتجده قلقًا في نفسه من مخالفة الشرع للقوانين الدولية ويقول ص(٥٩): «ولست أحبّ أن أوهِّن ديني أمام القوانين العالمية بموقف لا يستند استنادًا قويًّا إلى النصوص القاطعة» انتهى.

فهذه نقول كاشفات للحال النفسية المتوترة التي أنشأ أثناءها كتابه، وأنه بناه مريدًا دفع شبهات عن الإسلام بأي طريق وأي سبيل، حتى ولو كان السبيل ردًّا لقول العلماء والإجماعات، أو سلوكًا لسبيل الشذوذ في الآراء

(١) انظر المصدق السابق ص(٦٩ ـ ٧٣).

المعطلة عن محجة الاستدلال ونور العلم الوثيق الصحيح».

* من أخطائه الاعتقادية:

❑ قال الشيخ صالح: «ومن أخطائه العقدية قوله ص(١٤٢): «العلم الإلهي مسطور في كتاب ضابط شامل محيط ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ انتهى.

وهذا تعدٍّ وابتداع بما لم يُسبق إليه، إذا المسطور في اللوح المحفوظ هو ما في السماء والأرض، لا العلم الإلهي كله، فعبارته فيها عدم توقير لصفات اللَّه وفيها ابتداع وتعالم»[١].

❑ ومن أغلاطه قوله ص(١٤٤): «لقد شاء اللَّه لحكمة لا نعلمها أن يخلقنا ويكلفنا، وقال في وضوح ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ انتهى.

❑ والحكمة من الخلق والتكليف يعلمها صبيان أهل التوحيد ألا وهي تحقيق عبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾»[٢].

* العلم... العلم:

❑ ويسوق الشيخ في مقدمه كتابه قول ابن قتيبة: «قد كنا زمانًا نعتذر من الجهل، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم! وكنا نؤمِّل شكر الناس بالتنبيه والدِّلالة، فصرنا نرضى بالسلامة، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال، ولا يُنكر مع تغيّر الزمان. وفي اللَّه خلف وهو المستعان»[٣].

---

(١) المصدر السابق ص(٧٦).

(٢) المصدر السابق ص(٧٦ ـ ٧٧).

(٣) المصدر السابق ص(٥).

ويقول: «ولقد شهدت وشهدتُ أن العلم في زماننا قد استدْبر، وأن البُغاث «بأرضنا» قد استنسر.

قد أعوز الماء الطَّهورُ وما بقى غيرُ التيمُّمِ لو يطيبُ صعيدُ»[٢]

* أصل الإنسان وبدع المدرسة العقلية:

أصل الإنسان لا شك أمر غيبي لا سبيل إلى القطع في علمه ومعرفته إلا عن طريق الوحي والسنة الصحيحة المطهرة.

ولقد خلق اللَّه آدم عليه السلام أبا البشر من تراب خلقًا متكاملاً يؤهله لأن يكون خليفة في الأرض بإذن اللَّه، وألقى في ذهنه من العلم ما خفي على الملائكة عليهم السلام لتكون مزية عليهم ليسجدوا له بإذن اللَّه وأمره، ثم ليسكنه بعد هذا الجنة هو وزوجه لتقع منهما المعصية فينزلهما اللَّه إلى الأرض، أرض الابتلاء والامتحان.

ولم تزل البشرية كذلك إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.. ذلكم المعتقد في خلق الإنسان هو الذي اعتقده السلف وقامت أركانه على قواعد القرآن وآياته وصحيح السنة.

إلى أن ظهرت نظرية داروين سنة ١٨٥٩م التي قال عنها «فون باير» في كتابه «المذهب الداروني»: «إن الرأي القائل أن النوع الإنساني متولد من القردة السيمانية هو بلا شك أدخل رأي في الجنون قاله رجل على تاريخ الإنسان».

ويأتي الأستاذ محمد فريد وجدي وينكر على داروين نظريته ولكنه أيضًا يخالف نصوص القرآن مخالفة صريحة حين ينكر خلق آدم خلقًا

(١) المصدر السابق ص(٧٩)، والبيت قاله الأمير الشاعر ابن حَيُّوس، «ديوانه» (١/١٥٨) ط المجمع الدمشقي.

مستقلاً من طور العدم إلى طور الإنسانية الكاملة فيقول:

«ونحن لا نريد من قولنا أن أهل العلم تبينوا وَهَن أصول مذهب داروين أنهم أصبحوا يقولون بالخلق المستقل فهذا ما لا يقول به إلا الشاذ من أهل العلم اليوم، ولكنهم يرون لتسلسل الأحياء بعضها من بعض نواميس أخرى غير نواميس داروين»[1].

ولا تعتقد أن فريد وجدي هو الفارس الوحيد في ميدان الشذوذ، فقد سبقه وزاد عليه الفارس الذي لا يُشقُّ له غبار في هذا المجال الشيخ محمد عبده، ومن خلفه تلاميذه السيد رشيد رضا، وأحمد مصطفى المراغي، وتبعهم بعد ذلك الأستاذ عبد الصبور شاهين فزاد وأتى بما لم يأت به أحد.

❑ لم يرفض الشيخ محمد عبده نظرية ـ داروين كما أنه لم يصرّح بقبولها، ولكنه فسّر الآيات القرآنية بما يفسح المجال لمن يريد أن يقول بها وأنكر معارضة القرآن لذلك؟!

«ليس هذا تجنيًا منا على الشيخ عبده بل هو مع حسن الظن أيضًا، حينما نعلم أن الشيخ وتلميذه رشيد يساوون بين الاعتقاد بأن أبا البشر آدم عليه السلام والاعتقاد بأنه القرد أو غير ذلك ما دامت الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر.

وحتى ندع القارئ يسبقنا إلى الحكم عليهما نكتفي هنا بإيراد نصوص لهم.

❑ فقد قال الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً

(١) «على أطلال المذهب المادي» لمحمد فريد وجدي (١/١٠٣ ـ ١٠٤) ـ الطبعة الأولى ـ طبع دائرة معارف القرن العشرين ـ مصر.

وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] «ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر، فمن المفسرين من يقول إن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش، فإذا صح هذا جاز أن يفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان، وإذا قلنا أن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أي لجميع الأمم فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده، فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبًا يحملون النفس على ما يعتقدون. . والقرينة على أنه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ بالتنكير وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول وبث منهما جميع الرجال النساء، وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب وهذا العهد ليس معروفًا عند جميعهم فمن الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما، وهذا النسب المشهور عند ذرية نوح مثلاً هو مأخوذ عن العبرانيين فإنهم هم الذين جعلوا للبشر تاريخًا متصلاً بآدم وحددوا له زمنًا قريبًا. وأهل الصين ينسبون البشر إلى أب آخر ويذهبون بتاريخه إلى زمن أبعد من الزمن الذي ذهب إليه العبرانيون، والعلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين ونحن المسلمين لا نكلف تصديق تاريخ اليهود وإن عزوه إلى موسى عليه السلام فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وإنه بقي كما جاء به موسى»[1].

وبهذا أكد الشيخ أن آدم ليس أبو البشر كلهم وإنما قلت أكد لأنه: ـ

١ ـ استدل بأن الآية لا تدل (بالنص ولا بالظاهر) على ذلك.

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

٢ ـ وأنه لو كان آدم أبا البشر كلهم لما قال ﴿رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ بل قال جميع الرجال والنساء.

٣ ـ وأن من الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما.

٤ ـ أن العلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين باعتقادهم أن آدم أبو البشر.

وبهذا أضاء الشيخ عبده النور الأخضر لمن يريد أن يقول بنظرية داروين بأن يجعل تطبيقها على آباء البشر الآخرين عدا آدم عليه السلام.

فإن ذهبت تعترض على هذا وتقول: ـ ورد في القرآن الكريم الخطاب ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وورد في قوله ﷺ: **«كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب»**[1] وما رواه أحمد في «مسنده» عن رسول اللَّه ﷺ: **«يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»**[2].

إذا ما قلت هذا سهل عليه تأويل ذلك وكيف لا يسهل هذا على من يرد أحاديث البخاري ومسلم ويرد الأحاديث المتواترة كما مر بنا، يقول الشيخ عبده في تأويل ذلك: «وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله: «يا بني آدم» لا ينافي هذا ولا يعد نصًّا قاطعًا في كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وجه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة أنه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس فسدوا فيها وسفكوا الدماء، وأقول زيادة في الإيضاح إذا كان جماهير المفسرين فسروا النفس الواحدة هنا بآدم فهم لم

(١) رواه البزّار عن حذيفة بن اليمان.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١١).

يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلمة عندهم (!!) وهي أن آدم أبو البشر»[١] .

ويؤيد هذا الكلام تلميذه السيد رشيد بنوع من الأخبار لو لم يكن فيها تأييد لما ذهب إليه لاعتبرها من الإسرائيليات التي أدخلها كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما ولشن عليهما هجومًا لا ينقطع ونعى على الإسلام أمثالهما ولكن والحال أن هذه الأخبار في مقام تأييده فلا بأس من الاستدلال بها والدفاع عن المعتقدين لها قال: «وقد نقل عن الإمامية والصوفية أنه كان قبل آدم المشهور عند أهل الكتاب وعندنا آدمون كثيرون قال في «روح المعاني»: ذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية في الفصل الخامس عشر خبرًا طويلاً نقل فيه أن اللَّه تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم بين كل آدم وآدم ألف سنة وأن الدنيا بقيت خرابًا بعدهم خمسين ألف سنة ثم عمرت خمسين ألف سنة ثم خلق أبونا آدم عليه السلام، وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضًا أنه قال لعلك ترى أن اللَّه لم يخلق بشرًا غيركم بل واللَّه لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين»، ثم قال: «ثم نقل عن زين العرب القول بكفر من يقول بتعدد آدم وهذا من جرأته وجرأة أمثاله الذين يتهجمون على تفكير المسلمين لأوهى الشبهات»[٢] .

ثم يجمل لنا السيد رشيد رأي أستاذه «للأستاذ الإمام في هذا المقام رأيان:

أحدهما: أن ظاهر هذه الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم أي سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا، لما ذكره من معارضة المباحث العلمية

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

والتاريخية له ومن تنكير ما بثه منها ومن زوجها، على أنه يمكن الجواب عن هذا الأخير بأن التنكير لمن ولد منهما مباشرة كأنه يقول بث منهما كثيراً من الرجال والنساء وبث من هؤلاء سائر الناس وعن الأول بأنه لا يزال غير قطعي.

وثانيهما: أنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم والمراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادي البشرة المنتصب القامة الذي يطلق عليه لفظ الإنسان، وعلى هذا الرأي لا يرد على القرآن ما يقوله بعض الباحثين ومن اقتنع بقولهم من أن للبشر عدة آباء ترجع إليهم سلائل كل صنف.

❑ ثم إن ما ذهب إليه الأستاذ الإمام يرد الشبهات التي ترد في هذا لمقام ولكنه لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هذا لأنه لا يقول: أن القرآن ينفي هذا الاعتقاد وإنما يقول: أنه لا يثبته إثباتًا قطعيًّا لا حتمل التأويل وقد صرحنا بهذا؛ لأن بعض الناس كان فهم من درسه أنه ول أن القرآن ينفي هذا الاعتقاد أي اعتقاد أن آدم أبو البشر كلهم وهو لم ل هذا تصريحًا ولا تلويحًا وإنما بين أن ثبوت ما يقوله الباحثون في العلوم ار البشر وعادياتهم والحيوانات من أن للبشر عدة أصول ومن كون آدم ليس لهم كلهم في جميع الأرض قديمًا وحديثًا كل هذا لا ينافي القرآن ولا ضه ويمكن لمن ثبت عنده أن يكون مسلمًا مؤمنًا بالقرآن»[1].

❑ ثم يقول السيد رشيد: «وليت شعري ماذا يقول الذين يذهبون إلى المسألة قطعية بنص القرآن فيمن يوقن بدلائل قامت عنده بأن البشر من أصول؟ هل يقولون إذا أراد أن يكون مسلمًا وتعذر عليه ترك يقينه في

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٦).

المسألة أنه لا يصح إيمانه ولا يقبل إسلامه وإن أيقن بأن القرآن كلام اللَّه وأنه لا نص فيه يعارض يقينه»[١] .

❑ ويقول الشيخ أحمد مصطفى المراغي: وجمهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا آدم وهم لم يأخذوا هذا من نص الآية بل أخذوه تسليمًا وهو أن آدم أبو البشر»[٢] ، وقال: «وقال بعض العلماء أبهم اللَّه تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها، فلندعها على إبهامها، فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر أبًا كان ذلك غير مخالف لكتابنا، كما هو مخالف للتوراة التي نصت صراحة على أن آدم أبو البشر فحمل ذلك بعض الناس على الطعن في كونها من عند اللَّه ووحيه»[٢] .

❑ وكان الأولى بالشيخ المراغي أن يدعو إلى إنكار هذه الفكرة والرد عليها وبيان مخالفتها لنصوص القرآن؛ حتى إذا ما ثبت للناس بعد هذا بطلان هذه النظرية وقف المسلم شامخًا معتزًا بدينه، وكأنه يقول أرأيتم الدين الحق يقول كلمته مخالفًا نظرية في وقت دولتها وعصر سطوتها حتى حسبها بعض الناس حقيقة علمية، ولكن الإسلام يقول كلمته ولا يقف يعضُّ بنانه حائرًا بين تأييدها أو إنكارها جاهلاً الحق فيها أو يقف حائرًا بين هذه النظرية وحقيقة دينه الناصعة فيها، بل يقول حقائق دينه، ولو خالفت ما توهمه المتوهمون وزعمه الزاعمون.

❑ ويفسر الشيخ رشيد رضا المراد بالنفس بقوله: «هذا وأن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات ـ أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٢٧).

(٢) «تفسير المراغي» لأحمد مصطفى المراغي (٤/ ١٧٥).